
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الفصل الحادي عشر

إبراهيم مُتَفَرِّقة

(١٠٨٤ - ١١٥٦هـ/ ١٦٧٤- ١٧٤٤م)

رَجُلُ الدَّوْلَة التَّنْوِيرِيّ ومؤسِّسُ أوَّل مطبعةٍ إسلاميَّة

محمد زاهد جول

باحث في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، تركيا.

zahidgol@gmail.com

المقدمة:

اعترفت الدَّولة العثمانيّة لأولِّ مرةٍ في تاريخها بشكلٍ رسميٍّ بهزيمتها أمام أوروبا المسيحيَّة، عقب الاتفاقيّة الشَّهيرةً التي عقدت بين الإمبراطوريتين الألمانيّة والنِّمساويَّة في مدينة كارلويتز Karlowitz؛ فقد شكّلت هذه الاتفاقيَّة منعطفًا حاسمًا في التَّاريخ السِّياسي للدَّولة العثمانيَّة التي كانت تمثِّل العالم الإسلامي آنذاك، ونتيجةً لذلك أنهت المعاهدة التي عقدت سنة ١٦٩٩م فترةً طويلةً من الحُرُوب التي خاضتها الدَّولة العثمانيَّة مع الإمبراطوريّة النِّمساوية، وقد تسبَّبت هذه الاتفاقيّة بإحداث صدمةٍ كبيرةٍ لقادة الدَّولة العثمانية وشُيُوخها ومفكّريها وسائر أفراد المجتمع.(١)

فقد ربط بعض أبناء المجتمع العثمانيّ في ذلك العهد بين هذه الهزيمة، وابتعاد الدَّولة العثمانيَّة عن تطبيق الشريعة الإسلامية، في حين ربط بعض المفكرين والتَّنويريِّين وبعض رجال الدَّولة هذه الهزيمة بطبيعة النِّظام التَّقليدي الذي عجز عن مواكبة التَّطوّر، الذي اتّصفت به الدّولة العثمانيّة، فقد أفضىٰ ذلك إلىٰ التّفكير بضرورة متابعة التَّطورات والإصلاحات الحاصلة في الغرب.(٢)

لم يتأخر المصلحُون والمفكِّرون في إدراك هذه التَّطورات، ولو أن هذا الإدراك قد اقتصر في بداية الأمر علىٰ فئةٍ ضئيلةٍ من الإداريِّين العثمانيين الذين تنبّهوا في وقتٍ مبكرٍ من القرن السَّابع عشر إلىٰ أمرين مترابطين وهما:

- تدهور أوضاع الإدارة والاقتصاد في الدَّولة العثمانيّة، وهو ما أشار إليه اثنان من العاملين في الإدارة السُّلطانية، كاتب جلبي (حاجي خليفة) ١٦٠٩-١٦٥٧ وقوجي بيك، في النِّصف الأوَّل من القرن السَّابع عشر، وذلك من خلال رسائل موجّهة إلىٰ السُّلطان.(٣)
- إدراك المتنوِّرين العثمانيِّين أن الدُّول والممالك الأوروبيَّة المختلفة، وبالرّغم مما تبديه من ضعفٍ عسكريٍّ نسبيٍّ أمام الجيش والأسطول العثمانيين، فإنّ هذه الدُّول بدأت تطوّر فُنُونها وإدارتها وبحريَّتها وتجارتها، بحيث إن الوقت سيمضي سريعًا وستتمكن من ارتياد البحار البعيدة، وتحيط بدُول الإسلام.

والحق أن العثمانيِّين الذين كانوا يمثِّلون الدَّولة العثمانيّة الكبرىٰ في ذلك العصر، لم يشعُرُوا بأن العالم قد تغيّر حقيقةً إلا بعد الهزيمة المنكرة في السّنة الأخيرة من القرن السابع عشر ١٦٩٩، حين انكسرت الجيوش العثمانية أمام النّمسا وروسيا.

وإذا كان السلطان العثماني أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) قد أدرك ضرورة التّحديث، فإنَّ هذا الإدراك لم يشاطره فيه سوىٰ عددٍ قليلٍ من معاونيه، و أن هذا الإدراك كان يقتصر في ذهن الطَّبقة الحاكمة علىٰ الجوانب العسكريّة فحسب، ومع ذلك فإن أحد العاملين في الإدارة العثمانيّة ويُعرف باسم: «إبراهيم متفرِّقة» هو الشَّخصية التي لعبت دورًا بارزًا في الانفتاح العثماني علىٰ أوروبا؛ إذ يُعَدُّ العمل البارز الذي ارتبط باسمه هو إنشاء أوَّل مطبعةٍ إسلاميّةٍ في إسطنبول عام ١٧٢٧، ويظهر أن هذا العمل ما كان ليقوم

به لولا حماستُهُ ومواهبُهُ، ومع ذلك فإنَّ تأسيس المطبعة كان اشترك فيه عدد من الشَّخصيَّات المؤمنة بنقلِ هذا الاختراع الذي ظهر في أوروبا، ولعل السُّلطان أحمد الثَّالث كان مشجِّعًا لهذا العمل.(٤)

إن إقامة المطبعة كان يتطلَّب أمورًا عدة علىٰ رأسها موافقةٌ مُسبقةٌ من شيخ الإسلام، ولهذا فإنَّ إبراهيم متفرِّقة كتب رسالةً قصيرةً تحت عنوان: (وسيلة الطِّباعة) شرح فيها أهميَّة وضرورة إدخالِ فنِّ الطِّباعة إلىٰ البلاد العثمانيَّة، ولم يصدر الفرمان السُّلطانيّ بافتتاح المطبعة إلا بعد موافقة شيخ الإسلام الذي اشترط عدم طباعة الكُتُب الدِّينيّة بكلِّ فُرُوعها، كما عيَّن شخصين لغرضِ الرَّقابة علىٰ منشورات المطبعة، وقد استمر عمل المطبعة منذ تأسيسها عام ١٧٢٧ حتىٰ وفاة مؤسِّسها والمشرف علىٰ أعمالها؛ إبراهيم متفرِّقة.

وكتب إبراهيم متفرِّقة رسالةً تحت عنوان: (أصول الحكم في نظام الأمم)، أظهر فيها فهْمًا عقلانيًّا للعالم المحيط بالدّولة العثمانية، مشيرًا إلىٰ تقدُّم العُلُوم والأفكار والأنظمة في الدُّول الأوروبيّة، شارحًا فيها أن روسيا البدائيّة لم تقدر علىٰ هزيمة الدَّولة العثمانية، لو لم تأخذ بالتَّرتيبات الحديثة، ومن بين أهمّ ما يذكره متفرِّقة قوله: "إن الشُّعوب الأوروبيّة تتعلق فقط بقوانين وتشريعات بشريّة ناتجةٍ عن نُور العقل وحده"، مما يدلُّ علىٰ أن التَّغيير العميق الذي أصاب أوروبا لم يكن يقتصر علىٰ تراكم العُلُوم، بل في تبنِّي قِيَم الحداثة كذلك.

وسوف نحاول في هذا البحث التعرُّف علىٰ شخصيَّة إبراهيم متفرِّقة، وبعض إنجازاته العلمية النظرية والعملية، كما سنسلِّط الضَّوء علىٰ مطبعته علىٰ وجهِ الخُصُوص، وذلك لكونه من أبرز ما تميَّز به حياته وبه اشتهر.

أوَّلاً: إشكالية النشأة والعقيدة

ولد إبراهيم متفرِّقة(٥) عام ١٦٧٤م،(٦) في مدينة قولزوار(٧) المجريَّة، الواقعة في بترانسيلفانيا، وكانت تسمَّىٰ "أردل" erdel في عهد الدّولة العثمانيّة. ونشأ في كنف أبوين متدينين علىٰ مذهب "التّوحيد" أو "الوحداني" (Unitarius) البروتستانتيّ، المعروف بتوحيده للخالق، وعدم إشراك المسيح معه في الأُلُوهيَّة، ولهذا السَّبب كان هذا المذهب يختلف عن الكاثوليكيّة والكلفينيّة اختلافا جذريًّا، وكانت هذه المذاهب في "أردل" في ذلك الوقت في صراعٍ شديد، وقد اتُّهم هذا المذهب من قبل المذهبين المذكورينَ بأنه أقرب إلىٰ الإسلام من النَّصرانيّة،(٨) وهذا ما يفسِّر عداءه الشَّديد للكثلكة حتىٰ بعد دخوله في الإسلام.

تذكر غالبيَّة المصادر حياة إبراهيم متفرِّقة علىٰ النحو الآتي:

دخل الإسلام، من أصلٍ مجريّ، كان لديه طموحٌ في أن يصبح أباً للبروتستانتيّة، بعد أن يتخرَّج من مدرستها الدِّينيّة، إلا أنه صادف مفرزةً عسكريّة، في أثناء المعركة التي جرت بين الدَّولة العثمانيَّة المتّفقة مع المجر، والنِّمسا، وذلك عام ١٦٩٣م؛ فأسره الجيش العثمانيّ. ولمَّا لم يتقدَّم أحدٌ عنه لدفع فديةِ النّجاة المعروفة آنذاك، وبخاصّة أن أسرته كانت فقيرةً، جيء به إلىٰ إسطنبول، وكان عمره ثماني عشرة سنة.

وفي إسطنبول وقع تحت يد رجلٍ تركيٍّ ظالم، وعاش مدَّةً طويلةً من حياةِ البُؤْس والضَّنك، ولم يجد أمامه حلاً للتَّخلص من سيده الظَّالم إلاَّ بإعلان إسلامه؛ فأعلن إسلامه رغمًا عنه، وسمَّىٰ نفسه «إبراهيم».

وكان ذكيًّا ونشيطًا فقد ألَمَّ باللُّغة التُّركيَّة ومبادئ الدِّين الإسلامي في عدَّة سنوات، وتوفي متفرقة عام ١٧٤٥م عن عمر يناهز السبعين عامًا.(٩)

هذه هي ترجمة إبراهيم متفرِّقة في الكثير من المصادر، وهي معلوماتٌ قليلة، وغير دقيقة، والنَّاظر في ترجمته في الكُتُب يجدها تركِّز علىٰ عدَّة أمورٍ، وهي:

١. نشأته في عائلة كلفينية بروتستانتية.
٢. وقوعه أسيرًا بأيدي العثمانيين.
٣. إسلامه رغمًا عنه، ليتخلَّص من ظلم سيِّده العثماني.
٤. عدم التزامه بالأحكام الشّرعيّة الإسلاميّة، بعد إشهار إسلامه.

وقد درس كثير من الباحثين الأتراك هذه التُّهم الموجَّة إلىٰ شخصه. وسأحاول جاهدًا تلخيص آراء الباحثين في ردِّ هذه التُّهم، فإنَّ جُلّهم يرون أن هذه التَّرجمة ملفَّقةٌ من قِبل راهبين؛ أحدهما معاصرٌ لإبراهيم متفرِّقة وهو: دوسوسوار (D. SAUSSURE). والثَّاني هو: قره جون (KARACUN)، وكانت هذه القصّة مقبولةً لدىٰ معظم

الباحثين إلىٰ أن قام الباحث نيازي بركس[١٠] بدراسةٍ موسعةٍ عن حياة ودين وفكر إبراهيم متفرِّقة، فنَّد من خلال دراسته الكثير من الادِّعاءات، وخصوصًا ادِّعاءات المستشرقين. وتلاه الباحث أسعد خليل نجاتي أوغلو الذي أَلَّف كتابًا بعنوان: (إبراهيم متفرِّقة وكتابه: رسالة إسلامية)،[١١] فأكدّ ما ذهب إليه بحث نيازي بركس، ولكن بأدلة جديدة، ثمّ ظهرت بعد ذلك مقالات ودراسات كثيرة تُؤكِّد بطلان تلك الاتهامات، وخصوصًا ما يتعلَّق منها بالجانب الدِّيني والعقديّ عند إبراهيم متفرِّقة. وخلاصة هذه الدراسات تنصُّ علىٰ أن إبراهيم متفرِّقة نشأ في بلدٍ كان يتمذهب جلُّ أهله بعقيدة التوحيد (Unitarianism)، وقد انتشر هذا المذهب في "أردل" في أواسط القرن السادس عشر الميلادي، والتزم أكثر النّاس به، بعد أن كانوا علىٰ مذهب البروتستانتية (اللوثرية والكلفينية).

ومن جهةٍ أخرىٰ فإنَّ الكتاب الذي أَلَّفه متفرِّقة بعد إسلامه بثماني سنوات، بعنوان (رسالة إسلامية) يدل دلالةً واضحةً علىٰ معارضته للعقائد التي انتشرت بين النَّصارىٰ، بأسلوبٍ علميٍّ مقارن، وقد أكدَّ ذلك معاصره الرَّاهب المتعصِّب "جيامباتستا تودريني" (١٧٢٨- ١٧٩٩م) الذي ألف كتابًا عنه،[١٢] قال فيه "إن إبراهيم متفرِّقة: المهتدي المجري، ترك ديانته القديمة وأسلم. وكان رجلاً حاذقًا ماهرًا نشيطًا يقظًا. وكان يُتْقن الفرنسيّة والتُّركية والإسبانيّة[١٣] إضافةً إلىٰ إلمامه بلغته الأصليّة".

والرَّد علىٰ ما أثاره الراهب "قره جون" من وُقُوع متفرِّقة أسيراً في يد العثمانيّين يؤكِّد أن "متفرِّقة" لمّا وَجَد أنه لا يستطيع تحمُّل الضُّغوط الكاثوليكيّة الواقعة عليه وعلىٰ أمثاله، وبخاصة لمّا اشتدت عام ١٦٨٨ التجأ إلىٰ الدَّولة العثمانية، التي كانت أقرب الدُّول إلىٰ المجر تدين بعقيدة التَّوحيد، ليستطيع العيش علىٰ عقيدته، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتىٰ أعلن إسلامه برغبته، وألمّ بأمور دينه إلماماً جيِّداً.

ومع أن كثيرًا من الباحثين[١٤] يشيرون إلىٰ وُقُوعه أسيرًا[١٥] في يد العثمانيين، إلاّ أن ذلك كذلك من الموضوعات التي أثارها الرَّاهبان "دوسوسوار" وقرّه جون" دون الاستناد إلىٰ مرجعٍ يذكر؛ فأكثر الباحثين الذين كتبوا في هذا الموضوع استندوا إلىٰ الرَّاهبين المذكورين، دون أدلةٍ موثوقةٍ في هذا الصَّدد، فالذي ذكره قره جون من وقوع متفرِّقة أسيرًا في حرب عام ١٦٩٢ أو عام ١٦٩٣، وأنّه كان في الثّامنة عشرة منِ العمر،[١٦] ليس إلاّ مجرَّد قولٍ عارٍ من الصِّحة،[١٧] وقد أُثير من قبل الراهبين المذكورين بغيةَ الحطِّ من قيمته وتنـزيل مكانته في نظر الباحثين؛ إذ لم يتحمَّلا إسلام أحد مواطنيهم، وقيامه بخدمة أعدائهم العثمانيِّين، والإسهام في نشر العُلُوم والمعارف، وبخاصّة إذا عرفنا أن المجر كانت متَّفقة مع الدَّولة العثمانيَّة علىٰ الوُقُوف في وجه النِّمسا في الحرب، فلا معنىٰ لقيام الدَّولة العثمانيّة بأسر أتباعها أو المتّفقين معها.

أمَّا ما قيل من أنّه أسلم رغمًا عنه؛ فإن انتفاء أسره ينفيه؛ إذ لا يوجد لدينا أدنىٰ إشارةٍ إلىٰ مثل ذلك سوىٰ ما ورد عن الرَّاهبين المذكورين، وما ورد عن متفرِّقة نفسه في كُتُبه ينفي هذا الادّعاء، وبخاصّةٍ ما ذكره في كتابه: (رسالة إسلاميّة) في الدِّفاع عن وحدانيّة الخالق ومناقشة المشركين به، وهو يدلُّ علىٰ أنّه حصّل عُلُوم الدِّين الإسلاميّ بشكلٍ جيّد.[١٨]

أمّا ما قيل عن عدم تقيُّده بأحكام دينه الجديد، فلم يَرِد هذا الادّعاء إلاّ عن طريق "دولا قرووا" المترجم بالسَّفارة الفرنسيّة في إستانبول،[١٩] ومما ورد في حقّ الرّاهبين المذكورين واردٌ في حق هذا المدّعي كذلك من التَّعصب للدِّيانة النَّصرانيَّة، إلا أنّ الأمر المؤكَّد منه هو سلامةُ عقيدته ويقينه التّام بخالقه، وذلك من خلال ما ورد في كتابه:(رسالة إسلامية).

ثانياً: إبراهيم متفرِّقة رجل الدولة المحنّك

عُيِّن إبراهيم متفرِّقة مترجمًا لدىٰ الباب العالي، لكونه مُلمًّا باللُّغة الفرنسيّة والمجريَّة والتُّركيّة، ودخل الحياة السياسيّة ابتداءً من عام ١٧١٥،[٢٠] فقد عُيِّن في هذه السَّنة متفرقًا لدىٰ الباب العالي،[٢١] ومكافأةً له علىٰ خدماته التي قدَّمها للدَّولة خصِّص له راتب مقداره (٩٩) أقجة.[٢٢]

وقد كلّفه الباب العالي بمهام سياسيةٍ ودبلوماسية سامية لما كان له من إلمام وحذقٍ بالأمور السياسيّة والتَّنظيمية، وكذلك قدرته علىٰ إجراء المفاوضات، فقد

كان يتميّز بالأسلوب المقنع؛ فأصبح مستشارًا ومبعوثًا خاصّاً للسُّلطان، وأجرىٰ عدَّة مفاوضات دبلوماسيّة وخاصة مع النّمسا وروسيا في عام ١٧١٥.[٢٣]

وأُرسل عام ١٧١٦إلىٰ (بلجراد) مترجمًا للمجريِّين الذين اجتمعوا في (بلجراد) بغية تنظيم صفوفهم والهُجُوم علىٰ النّمساويين، ومفوضًا عنهم.[٢٤] كما عُيّن مترجمًا خاصًّا لملك المجر (راكوجي) (١٦٧٦- ١٧٣٤)، الذي وقع أسيرًا لدىٰ النّمساويين، ثم فرّ إلىٰ (بريطانيا)، فإلىٰ (فرنسا)، ومن هناك إلىٰ (إستانبول)، طالبًا المساعدة من العثمانيين بغية استرجاع ملكه، فأقام سبعة عشر عامًا في مدينة تكرداغ، وتوفي عام ١٧٣٤م، فبقي معه مُدّة إقامته في الدَّولة العثمانيّة، ولما كان متفرقة مُخلصاً في عمله فقد حاز علىٰ تقدير الباب العالي، وعلىٰ تقدير «راكوجي» كذلك.

ونظرًا لكون متفرّقة يقوم بمتابعة قضية تخليص "أردل" والمجر من حكم هابسبورج Habsbourg (النّمسا)؛ فقد قام مع "كومت دو بونفيل" Comte de- Bonneval الذي أسْلم وعُرف بـ"خمبره جي أحمد باشا"، بمشروع تنظيم الحرب ضد النّمسا، المتّفقة مع روسيا، وذلك عام١٧٣٥م.[٢٥]

شارك متفرقة في المباحثات التي جرت في (بولونيا) بين الدَّولة العثمانيّة والبولونيين عام ١٧٣٧م، وأدار جلسة المباحثات التي جرت حول تسليم قلعة (أورشوا) orsova عام ١٧٣٨م،[٢٦] وذهب إلىٰ (داغستان) ١٧٤٣م لتبليغ أمر تعيين "أسمي أحمد" Asmay Ahmed علىٰ إمارة "قيتاق" kaytak hanligi.[٢٧]

وهكذا نلاحظ أن الدولة العثمانية كانت تعتمد عليه اعتمادًا واضحاً وتثق به لدرجة إجراء كثير من المفاوضات والمعاهدات السياسيَّة نيابةً عنها، نظرًا لما كان يتمتَّع به من إتقان للُّغات التي يلمُّ بها، وكذا إلمامه بالسِّياسة الخارجيّة، وبخاصة في أُوروبا الوُسْطىٰ.

ثالثاً: إبراهيم متفرقة مؤلِّفاً ومترجماً

إن إبراهيم متفرّقة الذي عمل فترةً طويلةً في السلك الدبلوماسي مترجمًا ومفاوضًا قويًّا، قد كتب وألَّف الكُتُب المهمة، وترجم بعضها الآخر، ويتم هنا عرض كتبه ومؤلَّفاته علىٰ نحو مختصرٍ، مع الوقوف عند كتابه: (أصول الحكم)؛ لأنَّه من أعظم الكُتُب التي تميَّز بها بحسب الباحث، وكذا رسالته: (وسيلة الطِّباعة) لأنَّه أهمُّ عملٍ تميَّز به في حياته.

١ . (رسالة إسلامية):

وهي أوّل مؤلفات إبراهيم متفرقة، وكتبها في عام ١٧١٠م، وتقع في ٦٥ ورقة، قام فيها بشرح وتوضيح انتقاله من المسيحيَّة إلىٰ الإسلام، وضمّنها انتقادًا شديدًا للكاثوليكيّة والبابويّة، وكذلك اعتقاده بانتصار الإسلام علىٰ الكاثوليكيّة في أوروبا، و لم تشتمل هذه الرسالة علىٰ أيِّ فكرةٍ تتعلَّق بالإصلاح من قريبٍ أو بعيدٍ، والواقع أن (الرِّسالة الإسلاميَّة) لا تتمتع بأهميةٍ أو بمكانةٍ كبيرة في التَّأليف العثمانيّ، إلا أنها تُفيدنا في التَّعرف علىٰ مسارات تطوُّر أفكار مؤلِّفها، الذي كان يملك أسبابه الخاصة في العداء للكثلكة، وهي الأسباب التي تلتقي مع ما كان يسُود العالم الإسلامي - العثماني - من عداءٍ للمسيحيَّة في أوروبا.[٢٨] وقد اعتمد علىٰ هذه الرسالة بعض الباحثين الأتراك الذين شُغِلوا في البحث عن حقيقة إبراهيم متفرقة وشخصيته، وفي مقدمتهم الباحث البروفسور أسعد نجاتي جُوشَنْ.

ويتبنّىٰ هذا الكتاب النَّظرة الشَّائعة التي كان يتبنَّاها إبراهيم بشدَّة، التي كانت تقسِّم العالم إلىٰ جزئين متخاصمين، والتي يمكن للهزيمة القاسية القريبة العهد أمام أوروبا أن ترسِّخها لا أن تقلِّل من أهمِّيتها، ومع ذلك فإنَّ إبراهيم كان بإمكانه علىٰ الرّغم من احتفاظه بنفس العداء للأوروبيّين المسيحيين، أن يرىٰ معالم التَّقدم الأوروبي فيشرح أسبابه ويدعو إلىٰ الأخذ به.

وتوضِّح الرِّسالة أن الإسلام خاتم الرِّسالات، وكيف أن الكُتُب السَّابقة كانت تبشِّر بالدِّين الإسلامي وبنبيِّه محمدﷺ، ونقل في هذا الصَّدد العديد من نُصُوص الكُتُب المقدَّسة التي تبيِّن هذه البِشارة ووضَّحها، كما أن الكتاب يحتوي علىٰ نقدٍ لنصوص الكتاب المقدّس، وتضمَّنت الرّسالة الآيات القرآنية المتعلقة في هذا الباب، وتفسيرها، وبيان أسباب نـزولها، وترجم كل هذه النُّصوص إلىٰ التُّركية ترجمةً رائقةً.

٢ . رسالة (وسيلة الطِّباعة):

نشرت هذه الرِّسالة المكوَّنة من خمس صفحات في

ديباجة المجلد الأوَّل من (قاموس وان قولي) وهو أوّل كتابٍ ينشر من مطبعة متفرقة، وهي رسالةٌ مهمة تحتوي علىٰ فوائد المطبعة وأهميَّتها في حياة الشُّعُوب، وأوضح فيها كيف أهمل اليهود والنصارىٰ نشر كتبهم الدِّينية، وبيّن أن المسلمين علىٰ العكس منهم اعتنوا بالقرآن الكريم والحديث النَّبويّ الشَّريف وبضبطه، ثم تحدّث عن ضياع كُتُبٍ كثيرة في أيام "جنكيز خان" و"هولاكو"، وفي أثناء وُقُوعِ الأندلس في يد الأوروبيّين، وعدم بقاء من يقوم من الخطَّاطين أصحاب الهمم العالية بنسخ الكُتُب الكبيرة، وأن ما كتبه الخطَّاطون الآخرون قد امتلأ بالأخطاء،[٢٩] مما أدَّىٰ إلىٰ ضياع العُلُوم والمعارف، وأن كثيرًا من نسخ الكُتُب النَّادرة ضاعت في الحرائق التي كانت تنشب بين حينٍ وآخر في إسطنبول، وأن طلبة العُلُوم عاجزون عن توفير الكتب المقرَّرة عليهم،[٣٠] كما أن تلك الكُتُب المخطوطة باهظة الثَّمن، إلخ.

إن الحُجج التي سردها إبراهيم لإقناع أركان الدَّولة في الرِّسالة تدلُّ علىٰ أن النُّفوس غير مهيَّأة لقبول الطباعة، وعلىٰ الرغم من أنه أراد برسالته الوُقُوف أمام جميع محاولات المنع، إلا أنّ علامات التَّردد والرَّفض ظلت ظاهرة بعد تقديمها، أو عدم الاهتمام بالموضوع، فقدَّم رسالة أخرىٰ عام ١٧٢٦م[٣١] جدّد فيها ما كتبه في رسالته السَّابقة، وأضاف إليها طلباً بإصدار فرمان من السُّلطان وفتوىٰ من شيخ الإسلام، يذكر فيهما السَّماح له بطبع الكُتُب صراحةً.

وقد ألحق بهذه الرِّسالة الثَّانية عِدّة صفحاتٍ، كنماذج طباعيَّة من كتاب (وان قولي) الذي يزمع طبعه ونشره بعد الموافقة عليه؛ وهذا ما يُظهر لنا أنه في هذه الفترة قد أخذ الضَّوء الأخضر من أركان الدَّولة، لإنشاء المطبعة فأسَّسها منتظراً صُدُور الفرمان والفتوىٰ، وفيما يلي أهم النِّقاط التي احتوتها الوثيقة:[٣٢]

إن إبراهيم بدأ كتابه للصَّدر الأعظم بالدُّعاء له، ثم بيّن له أنه مستعدٌّ لتأسيس المطبعة وإتمامها علىٰ الوجه المطلوب بعونه تعالىٰ، وذلك بعد أن تصدر الأوامر العالية التي تسمح بطبع الكتاب وتقضي بإحضار الآلات اللازمة، وذكر له أن صدور أمرٍ سام يسمح بطبع الكُتُب سوف يكون له أثرٌ حسنٌ علىٰ الطُّلَّاب السَّاعين في طلب العُلُوم الشَّرعيَّة، والذين لا يملكون المقدرة الماديّة علىٰ امتلاك الكُتُب، وباعث لهم علىٰ اقتناء الكُتُب النَّفيسة بأسعار زهيدة. وذكر كذلك مع توفّر الكُتُب والرّسائل وسيلة لتحصيل العُلُوم، إلا أن أمرًا جسيمًا وربحًا عظيمًا مثل هذا متوقفٌ علىٰ الإعانة الربانيّة ثم علىٰ هِمَّة الدَّولة العليَّة، وبخاصةٍ ذاتكم العليّة صاحب الدولة.

وذكر في طلبه: إنه من المناسب أن يبدأ عمله بطباعة التَّرجمة التُّركية لمعجم (صحاح الجوهري) المسمَّىٰ (وان قولي)؛ فهو كتابٌ مشهورٌ ومعتبرٌ، ونُسخُهُ قليلةٌ وتشتد حاجة العالِم والمتعلّم إليه، لذلك فإنَّ نشره قبل كلّ شيءٍ ضروريٌّ، بعد أن قام بتصحيح عِدَّة صفحات من أوَّله ورتَّبها وطبعها، وقدَّمها نموذجًا إلىٰ الصَّدر الأعظم.

ثم بدأ إبراهيم متفرقة سطرًا جديدًا ليوضِّح أهدافه، فكان الهدف الأول هو: إنه يأمل أن يصدر أمر (مرسوم) بطباعة خمسمائة نسخةٍ من معجم (وان قولي)، لإصدار الكتاب في زمنٍ وجيزٍ وبأقلّ كلفة، وأن يصدّر الكتاب بصورةٍ من ذلك الأمر (المرسوم).

وفي الفقرة التي عدّها الهدف الثاني، عرّف فيها فنّ الطِّباعة بـ"أنه الفن الجديد والأمر المفيد، وهو من الأعمال الصِّناعيّة، ويمكن الاستفادة منه في أنواع من المهن، منها: حرفة الرَّسم، وطبع الكُتُب، وطبع أشكال الحُرُوف الجميلة حسب الرَّغبة، لتحسين المسكوكات النَّقدية وضربها، كما أنه يقوم بتسطير السُّطور، ووضع وترتيب الكلمات، ووضع الأختام علىٰ الورق". ويدّعي أن "هذا الفن المحجوب عن الناس طريقةٌ جديدةٌ في نشر الكُتُب وتصحيحها، وهو سبب لمنافع العباد"، ويقول: "إن قيام سعادة الصَّدر الأعظم بالإشارة علىٰ حضرة مفتي الأنام وشيخ مشايخ الإسلام بإصدار الإذن - أي الفتوىٰ - بذلك، سوف يكون أمرًا مستحسنًا لدىٰ النَّاس ليتبيَّنوا أن العمل موافقٌ للشَّرع المبين، وسوف يطبع هذا الأمر بأوَّل كلِّ كتاب".

وشرح هدفه الثَّالث بقوله: "لأنَّ الباعث والمسبِّب

لوجود هذا الأثر الجديد والفنّ المفيد، سوف يدُومُ ذكره إلىٰ يوم القيامة ويكون ذلك سببًا في استجلاب دعاء النَّاس له بالخير من قِبل كافّة العباد".

ويرجو "استصدار أمرٍ من المقام السّامي يسمح بطبع كُتُب اللُّغة والحكمة والهيئة والطِّب والحساب والتَّشريح والهندسة وكتب المسالك والممالك والجغرافيا، وسوف يتصدَّر الفرمان صدر كلّ كتابٍ يطبع".

وخصص إبراهيم هدفه الرَّابع لقضيةِ تصحيح الكُتُب؛ فقال: "إن تعيين بعضٍ من الأدباء الأفاضل وعلماء اللُّغة - برغبتهم الذَّاتيَّة - لتصحيح الكُتُب سوف يقضي علىٰ الأخطاء والسَّقطات والأغلاط، وأتمنىٰ أن يصدر أمرٌ بتعيين ثلاثةٍ أو أربعةٍ من هؤلاء الأفاضل الذين قاموا بتصحيح تجارب الطِّباعة النَّموذج المقدَّم لكم، من أجل إكمال تصحيح بقيَّة الكتاب، وسوف يدرج أيضًا هذا الأمر السَّامي في صدر الكتاب"، وقد كتب في الجانب الأيمن من المعروض أسماء الذين تعهَّدوا القيام بالتَّصحيح. وهم: أصحاب الفضيلة: إسحاق أفندي، وصاحب أفندي، وأسعد أفندي، وشيخ جامع قاسم باشا موسىٰ أفندي.

وبعد ذلك ذكر في سطرٍ جديدٍ تحت عنوان: (الأهداف الخاصة) أنه قام منذ ثماني سنوات (ببذل الجهد والسَّعي الحثيث، لإظهار هذا العمل صعب المنال، وأن الحمد ثم الحمد لله تعالىٰ لعناية الباري تعالىٰ بالتَّوفيق في هذا الأمر، وقد سهّل الأمر وتحقَّق في ظلِّ عهد ولي النِّعمة السُّلطان، ثم بيّن أنه "من المعلوم أنَّنا منذ الآن سوف نحتاج إلىٰ المساعدة، لطلب العناية والمدد، كما أن الموافقة علىٰ هذا الموضوع وإتمامه من قبل المقام السَّامي، سيجلب دعاء العالم، وسوف يُسْعد عباد الله، وإنه لتوسيع المطابع ولزيادة الآلات، ولدفع أجرة العاملين وغير ذلك من المهام، فإنِّني أرجو من حضرة وليّ النِّعمة السُّلطان، تدارك هذا الأمر العظيم، وإيصاله إلىٰ الكمال والتَّمام، ولاشكَّ أن العبد الفقير محتاجٌ إلىٰ إعانة ومساندة مقامكم الكريم بالطَّريقة المناسبة، حتىٰ تطبع الدَّفعة الأُولىٰ من الكُتُب التي نرجو أن تحصل علىٰ القبول".

وكتب أنه "استفاد من خدمة اليهودي "يونا"، الماهر في الأجهزة والآلات المتعلِّقة بالفن المذكور-أي المطبعة - والمُلِمِّ بجملة فُنُون الطِّباعة، والخبير بأصول هذا الفنّ"، وأوضح أن استخدامه في هذا الفنّ العظيم ضرورةٌ لا بُدَّ منها، وتمنَّىٰ له ولأولاده العافية في أجسامهم، والاهتداء إلىٰ الإسلام في اعتقادهم، وطلب أن يُعطىٰ إذنًا للعمل في المطبعة للاستفادة من خبراته تلك.

وادّعىٰ بأنه إذا وجِدت المساعدة لتحقيق أهدافه التي ذكرها، فإنه سوف يبدأ بمباشرة العمل والعزم علىٰ إتمامه في وقت مبكِّر، وأنه بعونه تعالىٰ، ثم بمساعدة وليّ النِّعمة سوف يتولَّىٰ إعداد إيجاد خطِّ النَّسخ والتَّعليق وسائر الخُطُوط التي يريدها السُّلطان في زمنٍ وجيزٍ علىٰ خير وجهٍ من الحُسْن والفنّ.

ثم عاد للحديث عن بذله للجهد المضني، وأنه صرف وقتًا طويلًا لتأسيس المطبعة، إلاّ أنه أصبح عاجزاً، ولم تبق لديه المقدرة، وأصابه الإحباط، ووجد نفسه مضطراً إلىٰ طلب المدد والعون، وأن سعيد أغا يكرمي سكز[٣٣] أفندي زاده، يبذل الجهد والمال منذ سنتين، وأنه ما زال يشارك في إتمام هذا العمل الصعب، إلا أنّ طاقاته أيضًا نفدتْ، أمّا أنا فليس لي مورد مالي، لا من الدَّولة، ولا من غيرها، وقد بقي إتمام هذا الأثر الجميل منوطاً بهمَّةِ ولي النِّعمة السلطان، وقد أكّد علىٰ حاجته الماسّة في "إصدار أمرٍ من جانب السُّلطان، لهذا العبد الفقير بتقديم أدنىٰ نوعٍ من الإحسان له".

كتب إبراهيم في نهايةٍ معروضته أنه إذا تم طبع الكتاب فإنه من المناسب تقدير سعرٍ معقولٍ، بأمرٍ شريفٍ ورأيٍ سديدٍ، وطرحه للبيع إلىٰ عباد الله، ولا يكون السِّعر زائداً أو ناقصاً، حتىٰ لا يتعرَّض الكتاب لعدم الإقبال عليه.

ولاشك في أن الصَّدر الأعظم "إبراهيم باشا" كان له أقوىٰ دورٍ في إقناع السُّلطان بالموافقة علىٰ إصدار فرمان يسمح بإنشاء المطبعة، كما كان إصرار "سعيد أفندي" -الذي أصبح فيما بعد صدرًا أعظم - الأثر الأكبر في إصدار الفرمان.[٣٤]

٣. (أُصُول الحكم لنظام الأمم):

جاء تأليفُ هذا الكتاب استجابةً لطلب السُّلطان محمود الأول (١٧٣٠ — ١٧٥٤م) الذي جعل أوّل عملٍ

قام به رغبتَه في البحث عن الطَّريق الذي يؤدِّي إلىٰ معرفة السَّبب في تقدُّم الكُفّارِ علىٰ أهل الإسلام؟ وما الوسيلة إلىٰ تقدّم المسلمين علىٰ الكفار؟

وكان هذا الكتاب موافقًا للمطلوب، فطُبِع مباشرةً، وذلك عام ١٧٣٢م. وهو صغيرٌ في حجمه غزيرٌ في معناه ودلالته، ويقع في ٤٨ صفحة.(٣٥)

يقسِّم إبراهيم كتابه (أصول الحكم في نظام الأمم) إلىٰ ثلاثةِ أقسام؛ مشتملةٍ علىٰ ثلاثة فُصُول؛ القسم الأوّل: يعالج ضرورةَ النِّظام والفوائد المعوَّلة عليه. والقسم الثَّاني يشتمل باختصارٍ علىٰ الفوائد النَّاجمة عن دراسةِ الجغرافيا. والقسم الثَّالث يشتمل علىٰ استعراض لمختلف أشكال القوّات في الجُيُوش المسيحيَّة، وقواعد النِّظام المتبعة عندهم، ونُظُمهم العسكريّة المسجَّلة والمنفَّذة في حُرُوبهم.

ويستعرض في البداية الظُّرُوف التي أحاطت بتأليف كتابه، ويبدو أنه ألف هذا الكتاب في فترةٍ من العُزْلة المؤقّتة حسب ما يُشِير في مقدمته، وخاصّة أنّ التَّأليف قد تمَّ في فترة الثَّورة التي رافقت عزل السُّلطان أحمد الثَّالث وصُعُود محمود الأوّل.

إن الأحداث التي رافقت هذه الثَّورة قد نَجَم عنها تدمير وإحراق بعض المنجزات التي أُنْشئت في عهد أحمد الثَّالث، وأُحرقت خلالها القُصُور الباذخة المبنيّة علىٰ الطِّراز الأُورُوبي، وقتل خلالها إبراهيم داماد باشا(٣٦) الذي عُدَّ مسؤولاً عن هذا الانفتاح الباذخ، وعلىٰ الرّغم من أن المطبعة قد سلمت من التَّدمير والحرق فليس مستبعدًا أن يكون المُشرف عليها قد خَشِي أن يلقىٰ مصير وزيره؛ إذ يقول: "وهكذا انسحبتُ إلىٰ زاويةٍ، وبعدها استسلمت لأفكاري وتذوَّقت راحة النَّفس ونعيم الحياة الخاصّة، حتىٰ قامت عام ١١٤٣/١٧٣٠م شمس سلطان البيت العثمانيِّ [يقصد السُّلطان محمود الأوَّل] فوجدتُ ذِهني قد توقَّد وامتلأ بالأفكار، كما امتلأ القلب بالألم لرؤيةِ هذه العدوانيَّة علىٰ امتداد تلك السَّنة، والكوارث التي أحاطت فجأة بالدَّولة العثمانيَّة".

وإذا كانت تلك هي ظُرُوف التَّأليف؛ فإنَّ أسباب التَّأليف يشرحها علىٰ النَّحو الآتي: "في تلك الأثناء اتّجه انتباهي وعنايتي إلىٰ أسباب هذه الثَّورة، وعكفتُ علىٰ البحث في أصول هذه المساوئ، ولم أُخطِئ بإيعاز هذه النَّتائج إلىٰ الاستخدام السَّيئ لمؤسَّسات الدَّولة، وتراخي الوزراء وكبار الإداريين وعدم اضطلاعهم بمسؤوليَّاتهم، ومن المناسب الاعتقاد بأن هذا من علامات الوهن في جسم الدَّولة، وهذه المظاهر من الضَّعف ليست إلا التَّمهيد لانحطاطها وانحلالها".

لا شكَّ في أن إبراهيم هنا يُتابع تقاليد المفكرين العثمانيِّين من أمثال: قوجي بيك، وكاتب جلبي (حاجي خليفة)، وحسين هزارفن؛ ممن بحثوا في أسباب انحطاط الدَّولة خلال القرن السَّابع عشر، لكن إبراهيم كان يملك إضافةً لم تكن واضحةً لسابقيه؛ إذ يقول: "أشدُّ ما دفعني إلىٰ عملي هذا الذي هو فوق طاقتي، وأبعدُ من حدود عقلي هو هذا الشَّعب المسيحي [يقصد الأوروبيين] بمقارنته مع المسلمين؛ إذ كان منخفضًا جدًّا عن المسلمين في العدد وطبيعة الجسم والعقل، وهو من جنسٍ بائسٍ أيضًا، لكن منذ بضع سنين انتشروا في كافة أرجاء العالم فلم يسيطروا علىٰ بعض المقاطعات فحسب، بل انتصروا مرَّات عدَّة علىٰ الجيش العثماني".

إذن ظهر العامل الأُورُوبي الذي أدخله عنصراً جديداً لدىٰ تحليل انحطاط الدَّولة العثمانيَّة، فرسم بالتَّالي طريقةً جديدةً لمعالجة هذه المسألة، وبشكلٍ جديدٍ كذلك يختلف عن سابقيه، وهذا ما نلمسُهُ في فُصُول الكتاب، وكذلك من خلال المراجع والمواد التي يستخدمها المؤلف في إعداد كتابه، وإتمامًا لمحاولته؛ إذ يقول: "اللُّغة اللاتينيّة التي أصبحت مألوفةً لديَّ ساعدتني كثيرًا في محاولتي، لأنَّني تمكنتُ من خلالها أن أجمع المعلومات المشتملة علىٰ تاريخ هذه الشُّعوب (الأوروبيّة)، كما راجعتُ مختلف الكُتُب عن فنِّ الحرب وعددًا من الرَّسائل المتعلقة بالتَّكتيك، ومؤسساتهم العسكريَّة، وتشكّل نظام معارفهم، ومن خلال اللُّغة اللاتينية تمكَّنتُ من معرفة خبرات كُلّ الأمم" إنّه لتطوُّر بارزٌ تحتله هذه اللُّغة منذ مطلع القرن الثّامن عشر.

يبدأ متفرقة كتابه بالحديث عن ضرورة السُّلطة للمجتمعات (وُجُوب الحُكَّام بين الأنام) فيقول: "كان من

الضَّروري أن يبحث البشر عن النَّجدة المتبادلة، فنشأ لديهم الميل إلىٰ التَّجمع والتَّعاون، ولعجزهم عن قيادة أنفسهم أَرسل لهم تارةً نبيًّا، وتارةً مبشِّرًا يسُنُّ القوانين النَّابعة من معرفتهم لتطبيق العدالة"، ويضيف: "وتبعًا لهذا التَّنسيق نرىٰ أن الشُّعوب تنتشر علىٰ مساحة الأرض علىٰ شكل قبائل وأمم، كلّ مجموعة تختار رئيساً، ومن ثمّ تأسَّست الدّولة المنتشرة علىٰ الأرض؛ فكان الخلفاء والأباطرة والسّلاطين والقياصرة"، وهذا التّعداد يتعمَّده ليشير إلىٰ الاختلافات النِّسبية بين أشكال الحُكم في العالم، وإنها نظرةٌ متسامحةٌ تستوعب الاختلاف والتَّمايز.

وحين يتحدَّث عن أشكال السُّلطات لا يعود إلىٰ الفهم الإسلامي (التُّراث) بل يستعير التَّقسيم اليوناني القديم، ويختصر أشكال السُّلطات: الشَّكل الأفلاطوني؛ وهو الذي يرىٰ بأنَّ الدَّولة يجب أن يحكمها ملكٌ عادلٌ وحكيمٌ، وهذا النَّوع يسمىٰ باللُّغات اللاتينيَّة أو اليونانيَّة (المونارشي)، أو الملكي، وعليه تسير أغلب الدُّول في العالم، ثم الشَّكل الأرسطوي، وحسب هذا الشَّكل ينبغي أن تُوضع السُّلطة بين أيدي كبار الدولة، وهذا النَّوع يُسمَّىٰ بلغة الفلاسفة (الأرستقراطي)، وفي أيامنا تسير جمهوريّة البُندقيّة علىٰ نمطه، وأخيرًا الشَّكل الدّيموقراطي، وبحسبه تكون السُّلطة للشَّعب حتىٰ يتمّ إزالة الظُّلم والقسوة، ويُسمَّىٰ كذلك تبعاً لاسم منشأه، وتتَّبع هذا النّوع حالياً هولندا وإنكلترا.

يكاد الهاجس العسكريّ الذي يخترق كتاب متفرِّقة يكون موضوعاً وحيداً لمحاولته، فهو يشدِّد في كلِّ الصَّفحات علىٰ هذه النَّاحية، أو النَّواحي المتَّصلة بها أو المتفرِّعة عنها، وتحت عنوان: (بيان احتياج الدُّول في بيان أحكام دولتهم وبقاء نظام أحوالهم إلىٰ ترتيب عشائرهم) يتحدث بالتَّفصيل عن أشكال تنظيم الجيوش المسيحيّة في المعارك وأنواع الأسلحة المستخدمة والتَّحصينات المعتمدة. ويفصِّل الحديث في نهاية كتابه عن التَّجربة الرُّوسية ويلجأ إلىٰ التَّحليل الموضوعيّ عن تجربة (الموسكوف) فيقولُ: "من المفيد أن نلاحظ أن الموسكوف لم يكونوا إلا شعبًا بائساً من قبل، وليس لهم الشَّجاعة لمحاربة أيِّ جيش: فاختارُوا الانسحاب إلىٰ بقعةٍ بعيدةٍ في زاوية الأرض في مناخٍ جليديٍّ، وكانوا في هذه الحالة حين قام بينهم فجأةً قيصرٌ موهوبٌ وعارفٌ بأمور الحكم والدُّول الأخرىٰ، فبحث عن شكل نظامهم العسكريّ، ومبادئ حكوماتهم، وإدارة الشُّؤون السِّياسيّة والمدنيّة، وبعد أن أصلح قواه البريَّة التي نظَّمها علىٰ طريقةِ الدُّول الأوروبيَّة، لاحظَ أن بحر قزوين ليس خاضعًا لسيطرة واحد، لذلك خطَّط للسَّيطرة عليه، فبنىٰ في موانئ هذا البحر السُّفن والبواخر، واحتجَّ بأنّه يقصد التِّجارة مع بلاد فارس، واستدعىٰ مهندسين من جنسيّات مختلفة، فوضعوا له الخرائط الدَّقيقة للبلاد المحيطة، ليستخدمها دليلاً في حروبه في فارس وداغستان، والأقاليم المجاورة".

ومن الطَّبيعي أن يُولي متفرِّقة اهتمامه للجغرافيا؛ فإنَّ كسب الحُرُوب لا يتمُّ بدون معرفة الجغرافيا؛ إذ يقول: "الجغرافيا في الحقيقة مرآةٌ معقولة فيها نرىٰ بنظرةٍ واحدةٍ كلّ الشُّعوب والأمم المنتشرة علىٰ سطح الكُرة بوضوح، والشُّعوب المؤمنة بوحدانيّة الله والمنتشرة في أصقاعٍ مختلفة، سيتَّصلون بعضهم ببعض بهذه الوسيلة [الجغرافيا]، ويستجمعون من جديد شجاعتهم وينظِّمون قواهم فيؤلِّفون اتحادًا يردُّ ظلم الكفرة".

وفي عبارةٍ بارزةٍ لافتة للانتباه يُلاحظ إبراهيم متفرِّقة في معرض حديثه عن قوانين الأوروبيِّين؛ فيقول: «إن الشُّعوب المسيحيَّة ليس لها في أيامنا الحاضرة قوانينُ مقدَّسة تتعلَّق بإدارة أعمال الحكومة، أي ليس لها قانونٌ من جانب الله يتعلقون به دينياً ، إنْ في شُؤُون التَّشريع أو في القرارات الشَّائكة لإدارة الدولة، إنَّهم يتعلَّقون فقط بقوانين وتشريعاتٍ بشريَّة ناتجةٍ عن نُورِ العقل وحده».

إنّها إشارةٌ مهمة ولا شكّ، خصوصًا أنها تأتي من مُتنوِّرٍ مسلم في بداية القرن الثَّامن عشر، ومن المرجَّح أنّها لا تعبِّر إلا جزئيًّا عما يعبِّره متفرِّقة من فكرةٍ عن الأوروبيين، ولعل هذه الملاحظة قد تكوَّنت لديه من خلال مراقبته لأحوال الحُكُومات الأوروبيّة، وكيفيّة عملها، وليس من خلال تأمُّله في أعمال المفكِّرين الأوروبيّين في عصره، إن إبراهيم متفرقة كان معاصرًا لـ: لايبنتز ومالبرانش، وقد عاش في عصر أعقب عصر ديكارت وسبينوزا، ومع ذلك فمن المستبعد أن يكون قد قرأ أيّ واحد من هؤلاء أو اطّلع

علىٰ تراث العقلانيّين الأوروبيّين.

إن اهتمام إبراهيم متفرّقة قد انصب علىٰ الجوانب العلميّة في التَّقدم الأُورُوبي، والعسكريَّة منها بخاصة، إلا أن المهم لديه هو فصله بين هذا التَّقدم من ناحيةٍ، الذين أنتجوه من ناحية أخرىٰ، فليس كلّ ما ينتُج عن الكافر هو عملٌ غيرُ جديرٍ بالاهتمام، بل علىٰ العكس من ذلك فإنّ ما أنتجه الأوروبيون في مجال العلم الجغرافيّ يمكنه أن يحمل فائدةً بارزةً للمؤمنين، وبعبارةٍ أخرىٰ؛ فإن متفرّقة قد حاول أن يميِّز بين فساد دين الأوروبيين، وصلاحيّة العُلُوم الصَّادرة عنهم وعن تجاربهم الحديثة، وأكثر من ذلك أيضًا فإن كفر الأوروبيّين لم يمنعهم من بُلُوغ مرتبةٍ أعلىٰ من القُوّة والتَّقدم مما بلغه المؤمنون.

ويمكن القول أخيراً: إن كتاب (أصول الحكم في نظام الأمم) هو أول محاولةٍ نظريّةٍ من نوعها تطرح مسألة الاستفادة من عُلُوم أوروبا، وضرورة الاكتساب للتَّقنية الحديثة، ومن جهةٍ أخرىٰ فإنّ هذا الكتاب قد طوَّر علىٰ نحوٍ لا سابق له طريقةَ نظر المسلم إلىٰ أوروبا، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أوروبا مركز استقطابٍ للوعي الإسلاميّ الأكثر تحسُّساً بمتغيّرات العصر.

ويُفهم من مضمون كلام متفرّقة في هذا الكتاب، أنّه رجلٌ منطقيّ وعقلانيّ، يعتمد في تعليل الأسباب علىٰ مسبِّباتها، وهي ما يطلق عليها في المصطلح الثَّقافي الإسلامي بالسُّنن الكونيّة.(٣٧)

٤. ترجمة تاريخ سيّاح أفغانستان:

يتحدَّث الكتاب عن حُرُوب الأفغان مع الفُرْس وسُقُوط الدَّولة الصَّفوية ببلاد فارس، بعد حكمٍ طويلٍ دام مائتين وثمان وعشرين سنة، ويذكر المؤلف أنَّ السَّببَ في ذلك هو استبدادُ المُلُوك الأوائل، وتعاطي الرَّشاوىٰ داخل جهاز الحكم، والصِّراعات الدَّاخلية بين الأمراء التي أدّت إلىٰ ضعف الدَّولة وتقسيمها، ومن الأسباب أيضًا عدم تطبيق الشَّريعة وإباحة شرب الخمر ومنع القيام بمناسك الحجّ.

وقد ألّفه الأب اليَسُوعي البُولُوني (تادي كريزنسكي)، الذي قضىٰ خمس سنوات في بلاد فارس قبل تأليف كتابه باللاتينية، وترجمه متفرقة، كما ذكر في مقدمته للكتاب: "أنه بذل أقصىٰ الجُهُود في ترجمته إلىٰ اللُّغة التُّركية، فمن الله التَّوفيق للصَّواب وإليه المرجع والمآب، ترجمه الحقير والفقير إبراهيم، من متفرقة الباب العالي".(٣٨)

٥. ترجمة فيوضات مغناطيسية:

يتناول الكتاب كيفيَّة الاستفادة من البُوصلة التي يُقال إنها اكتشفت عام ١٣٦٠م، ويذكر الاختلافات الواردة في هذا الصَّدد، ويتعرَّض لاستخداماتها لدىٰ المسلمين وبخاصَّة في السَّفر إلىٰ الحرمين الشَّريفين.

والكتاب في حقيقته منتخباتٌ من كُتُب لاتينية جمعها متفرقة، وتحدّث فيها عن البوصلة وفائدتها للسُّفن والبواخر، وأنها تمنع البحّارة من أن يضلُّوا الطريق.(٣٩)

٦. جرامر تركي **Grammaire Turque**

كتابٌ في قواعد اللغة التركية، طُبع هذا الكتاب عام ١٧٣١م، ويقع الكتاب في ٢١٨ صفحة، ويذكر أن حُرُوف الطباعة الفرنسية المستخدمة في هذا الكتاب أرسلت من فرنسا. ومؤلّف الكتاب (هولدرمان)، والهدف من تأليفه هو تعليم اللُّغة التُّركيّة للفرنسيّين القادمين إلىٰ الدَّولة العثمانيَّة للتِّجارة، فتأليف هذا الكتاب كان تلبيةً للحاجة إلىٰ تعلُّم اللُّغة التُّركيّة.

ومما يميِّز هذا الكتاب عن غيره من كُتُب متفرِّقة استخدام الحُرُوف اللاتينية، فالكتاب علىٰ غِرَار القواميس اللُّغوية الحديثة، يتناول التَّعبيرات العثمانيّة التي يحتاج إليها الأجانب لاستخدامها بكثرةٍ، وبجانب التَّرجمة الفرنسيَّة يوجد التَّعبير العُثْماني نفسه بالحُرُوف اللاتينيّة، وذلك بغية تسهيل قراءتها ونطقها بشكل سليم.

رابعاً: إبراهيم متفرقة وتأسيس أوَّل مطبعة إسلاميَّة:

قام إبراهيم متفرّقة بكثير من الأعمال في حياته، مثل النَّحت والنَّشر والتَّأليف والتَّرجمة؛ إلا أنّ أهمّ عملٍ اشتهر به هو تأسيسه لأوَّلِ مطبعةٍ إسلاميّةٍ تركيّةٍ في الدَّولة العُثمانيّة، كاسرًا بذلك الحاجز الكثيف الذي كان يحول بين المسلمين ودُخُول المطبعة الإسلاميّة إلىٰ بلادهم.

من المؤكَّد أن إبراهيم متفرِّقة كان علىٰ درايةٍ بفنِّ الطِّباعة قبل مجيئه إلىٰ الدَّولة العثمانيّة؛ إذ ذكر أنه تعلم أعمال الطِّباعة في أيَّام دراسته في الكُلِّيَّة اللاهوتيّة في

قولزوار، حيث تعلَّم في الكنيسةٍ الكلفينيّة.[٤٠] ويقال إنّه تعلَّم الطباعة في قولزوار عام ١٦٨٩م، على يد أشهر نحَّاتٍ في ذلك الوقت، وهو الطابع الشَّهير: (ميخائيل مستوتفالوسي كيس) (Mihail Misztotfalusi kiss) (توفي ١٧٠٢م)، وهو الذي أنشأ أهمَّ مطبعةٍ للمذهب الوحداني Onitarius، وكان متفرِّقة آنذاك طالبًا في كليَّة اللاهوت، وكانت "أردل" والمجر من أهمِّ بلاد أوروبا الوُسْطى التي انتشرت فيها الطِّباعة بسرعةٍ، وهو الأمر الذي ذكره للصدر الأعظم داماد إبراهيم باشا والسفير المبتعث إلى فرنسا "جلبي محمد أفندي يكرمي سكز" من ضرورة الشروع في إنشاء المطبعة، كما ورد ذلك حسب شهادة أحد الدبلوماسيين الفرنسيين في إستانبول، إذ ذكر أن متفرقة عرض مشروعه على بعض الوزراء، الذين اقتنعوا بجدواه، لكنهم رأوا أنه صعب التحقيق في ذلك الوقت.[٤١]

ولمّا رجع السفير جلبي محمد أفندي وابنه سعيد أفندي من باريس كرر متفرقة على الأخير وجوب الشروع في إنشاء المطبعة، وقدم له رسالته الشهيرة المعروفة بـ (وسيلة الطباعة) لتقديمها إلى الصدر الأعظم، ليعرضها بدوره على السلطان أحمد الثالث لمنحه الرخصة بإنشاء المطبعة.

ذكر السلطان أحمد الثالث في الفرمان الذي أصدره[٤٢] سنة ١٧٢٦م بناءً على طلب «سعيد أفندي» و«إبراهيم متفرقة»؛ أنه أجاز لهما بممارسة مهنة الطباعة وإنشاء المطبعة، لكونها تؤدِّي إلى نشر العُلُوم والمعارف بين أفراد الأمة الإسلامية، وإصدار كتب علماء الدين المبين وحفظها وصيانتها؛ إذ تعرّض كثير من الكتب النادرة إلى التلف والإحراق والضياع أيام جنكيز خان و«هولاكو» وهجوم الإفرنج على الأندلس والمعارك التي جرت بين حين وآخر، والحرائق التي كانت تنشب، كل ذلك يجعل إنشاء المطبعة واجبًا، ولا بأس بالشروع أول الأمر في طبع قاموس «وان قولي» نظرًا لرغبة طلبة العلم فيه، وبما هو كتاب ضخم، لا يستطيع المستنسخون نسخه.

وأشار في الفرمان كذلك إلى السماح بطبع الكتب جميعًا ما عدا كتب الفقه والتفسير والحديث الشريف وكتب علم الكلام.

وذكر فيه أيضاً أن شيخ الإسلام ومفتي الأنام «عبد الله أفندي» قد سئل "أن زيدًا إذا ادّعى أنه ماهر في فن الطباعة، وأنه إذا قام بحكّ الحروف المستخدمة في علوم الآلة ونقَشها على قالب ثم طبعها على الأوراق، هل له رخصة العمل شرعًا؟ فقال: إذا قام خبير في فن الطباعة بطبع حروف وكلمات كتابٍ مصحّح على قالب، ونقشها بشكل صحيح ثم طبَعَها على أوراق في زمن قليل مع نسخ كثيرة، مما يؤدي إلى رخص الكتاب ونشر العلوم بين عامة الناس، وتعيين أناس في القيام بتصحيح الكتب التي يُزمع طبعها، وذلك بتعيين المصححين في عمل الطبع، فإن ذلك من أحسن الأمور الحسنة.

ثم أشار السلطان في فرمانه إلى صدور الأمر بتعيين المصححين للمطبعة، وهم قاضي إسطنبول السابق «مولانا إسحاق»، وقاضي سلانيك السابق «مولانا صاحب»، وقاضي غلطه السابق مولانا أسعد وشيخ مولوية قاسم باشا «مولانا موسى».

ثم كرر للمرة الثالثة أن الكتب التي تطبع في المطبعة المذكورة لا تتجاوز كتب اللغة والمنطق والحكمة والهيئة، وأمثالها من كتب علم الآلة وما إلى ذلك، وهذه النقطة (أي تكرار ذكر نوعية الكتب المسموح بطبعها) من الأشياء الجديرة بالالتفات إليها في فرمان السلطان أحمد الثالث.

ثم ذكر في نهاية الفرمان «اعتماد قله سز (أي اعتمدوا أمرنا هذا) في أواسط ذي القعدة سنة تسع وثلاثين [هكذا] ومائة وألف بمقام المحروسة قسطنطينية».

وقد دُوِّن كذلك في ديباجة المجلد الأول من (وان قولي) فتوى شيخ الإسلام المذكور بنصّه في فرمان السلطان أحمد الثالث، وفي نهايته "كتبه عبد الله الفقير عفي عنه"، ثم تقاريظ العلماء على "الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة".

وقد اشتمل على تقاريظ العلماء على النحو الآتي: تقريظ داماد زاده أفندي صدر روم سابقًا. تقريظ مير زاده أفندي صدر روم سابقًا. تقريظ عبد الله أفندي صدر روم سابقًا. تقريظ فيض الله أفندي صدر روم سابقًا. تقريظ السيد محمد أفندي صدر روم حالاً. تقريظ صالح أفندي صدر أناطولي سابقًا. تقريظ درّي أفندي صدر أناضولي سابقًا. تقريظ مصطفى أفندي صدر أناضولي حالاً. تقريظ سالم أفندي قاضي إستانبول سابقًا. تقريظ إسحق أفندي قاضي

إستانبول سابقًا. تقريظ عبد الرحمن أفندي إمام شهرياري حالاً وقاضي إسطنبول سابقًا. تقريظ شيخ زاده محمد أفندي قاضي إسطنبول سابقًا. تقريظ السيد زين العابدين أفندي نقيب الأشراف حالاً. تقريظ زلالي أفندي قاضي إسطنبول حالاً. تقريظ إسحق زاده أفندي قاضي إسطنبول سابقًا.

ولعل مشاركة هذا العدد الكبير من العلماء في كتابة تقاريظ للكتاب يدل دلالة واضحة علىٰ عدم معارضة بعض العلماء لاستخدام فن الطباعة الجديد، وفي الوقت نفسه يدل علىٰ الاحتراز مما يمكن أن يعارض هذا الفن وبخاصة فرقة الإنكشارية.

خامساً: مطبوعات إبراهيم متفرِّقة

تم طباعة سبعة عشر كتابًا في زمن متفرِّقة خلال ١٤ سنة، مجموعها ٢٢ مجلدًا، وكانت موضوعات تلك الكتب علىٰ النحو الآتي:

١- (قاموس وان قولي) وهو ترجمة (الصِّحاح) للجوهري. هذا أوَّل كتابٍ تركي مطبوع بالحُرُوف العربيّة داخل الدولة العثمانية.

٢- (تحفة الكبار في أسفار البحار) لكاتب جلبي. يتناول الكتاب تاريخ البحرية التركية، وقد تناول الكتاب خمس خرائط، من عمل إبراهيم متفرقة.

٣- ترجمة (تاريخ سيّاح أفغانستان)، لإبراهيم متفرقة.

٤- (تاريخ الهند الغربي) المسمىٰ (حديث نَوْ).[٤٣]

٥- (تاريخ تيمور كوركان) لنظمىٰ زاده البغدادي، وهو ترجمة كتاب: «عجائب المقدور في نوائب تيمور» لابن عربشاه.

٦- (تاريخ مصر القديم والجديد) لسهيلي أفندي.

٧- (كُلْشَنْ خلفا) لنظمي زاده البغدادي.

٨- (جرامر تركي) Grammaire Turque لإبراهيم متفرقة.

٩- (أصول الحكم لنظام الأمم) لإبراهيم متفرقة.

١٠- (فيوضات مغناطيسية) لإبراهيم متفرقة.

١١-(جهان نما) [مرآة العالم] لكاتب جلبي (حاجي خليفة).[٤٤]

١٢- (تقويم التَّواريخ) لكاتب جلبي (حاجي خليفة).[٤٥]

١٣- (تاريخ نعيما).

١٤- (تاريخ راشد).

١٥- (تاريخ جلبي زاده) عاصم أفندي.

١٦- (أحوال غزوات دَرْدِيار بُوسْنَة).

١٧- (لسان العجم) المسمىٰ (فَرْهَنْك شعوري).

الخاتمة:

أهم عمل قام به إبراهيم متفرقة هو إدخاله المطبعة إلىٰ الدَّولة العثمانيَّة في القرن الثامن عشر، وهو الأمر الذي كان يلقىٰ معارضةً شديدةً من بعض رجالات الدَّولة والمشايخ لأسباب دينيَّة واجتماعيَّة، ولذلك فقد بذل متفرقة جهدًا مضاعفاً في إقناع السُّلطة بشقيها الدِّيني والسِّياسي بأهمية إدخال المطبعة ودورها التَّنويري علىٰ المجتمع والدَّولة، ويبدو أن الخلفيَّة الثَّقافية والدِّينيّة التي جاء منها متفرقة كان لها الأثر الأكبر في وعيه بضرورة التَّحديث والتَّقدم، فقد كان قبل إسلامه مسيحيًّا بروتستنتيّا كالفينيًّا من المجر، التي كانت تمرُّ بمرحلةٍ من التَّطور والإصلاح والتَّنوير، وقد ظهرت هذه المؤثرات بشكلٍ جليٍّ علىٰ شخصيّة متفرّقة من خلال مؤلفاته ورسائله التي تظهر فيها معرفته بواقع الحداثة الذي بدأ في أوروبا، والذي كان يراقبه عن كثب علىٰ الرّغم من عدم اطلاعه المباشر علىٰ مفكري عصر النّهضة.

إن إشكاليّة التّقدم والتّأخر التي طبعت عصر النّهضة الأوروبي شكّلت هاجسًا لدىٰ متفرِّقة، فقد أدرك في وقتٍ مبكرٍ الانقلاب الذي بدأ يشهده العالم متمثِّلاً في نزعة التّقدم والتّطور والتّحديث التي بدأت تسود في الغرب، في الوقت الذي كانت الدولة العثمانيّة تنـزع نحو المحافظة والتَّقليد والجُمُود، وتُعدّ المطبعة أحد أهم مظاهر التَّقدم التي أشَّرت علىٰ التَّنوير في وقتٍ كانت فيه الدَّولة العثمانية منشغلةً بالشَّأن العسكري، فقد احتاج متفرقة إلىٰ دعم شيوخ الدولة العثمانية ومساندتهم في إدخال النُّظم الطِّباعيّة، والذين انقسموا حول مشروعيّة إدخال المطبعة، بل إن المساندين لمتفرّقة اشترطوا في فتاواهم عدم نشر الكُتب الدينيّة، والاقتصار علىٰ طباعة كُتُب العلوم الطبيعيّة وبعض علوم الآلة.

ويبدو إبراهيم متفرقَة علىٰ الرغم من قِلَّة إنتاجه الفكريَ- واعيًا بالإشكالات والتَّحديات التي كانت تمرُّ بها الدولة العثمانية، فلذا قام بدور المرشد والمنوِّر والنَّاصح الأمين.

المراجع

(1) SHAW, Stanford: Between old and new. The ottoman empire under sultan selim III (1789-1807) Harvard 1971.Vol.1.p.224.

(2) KARAL, E.Z: La transformation de la turquie d'un empire oriental enun état moderne.J.W.H.(1958).P.430.

(3) Canon de sultan suleiman 11 representé à sultan murad IV pour son instruction, à Paris MOCCXXV Paris pp. 163-218.

(4) Lewis, Bernard: The impact of the French revolution on Turkey.J.W.H. (1953)1.P.35.

(٥) (متفرِّقة) لقبٌ يطلق في عهد الدَّولة العثمانيّة علىٰ نوعٍ من العاملين، الذين يقومون بخدمة السُّلطان والوزراء وغيرهم من رجال الدولة، أو يكونون في معيَّتهم، وكانوا يختارون من النّاس المعروفين بأصالتهم وثقتهم. للمزيد من التّفصيل انظر:

- Mehmet Zeki pakalin: Osmanli tarih deyimleri ve terimleri sozlugu, İstanbul Milli Eğitim Basımevi, 1983: 2/637- 638.

(٦) تذكر بعض المصادر أنه ولد عام ١٦٧٠م. ويذكر وحيد قدورة أنه ولد عام ١٦٧٥م. انظر:

- وحيد، قدورة. بداية الطباعة العربية في إسطنبول وبلاد الشام، جوان: مركز الدراسات والبحوث، ١٩٩٢، ص٢٦١.

(٧) Kolozsvar أو Kolojvar هي مدينة كلوج (Cluj)، تقع في شمال غرب رومانيا حاليًّا. ولفظ (وار) باللغة المجرية تعني القلعة. انظر:

- سامي، شمس الدين. قاموس الأعلام، اسطنبول: مهران مطبعة سي، ١٣٠٦ هـ، ج٥،ص٣٧٥٦ (مادة: قول).

(8) Türk Ansiklopedisi, Ankara: Milli Eğitim Bakanlığı, 1971. 33/20-21 (Unitarlar mad).

Niyazi Berkes: (Türkiye'de Çağdaşlaşma), İstanbul, Batı- Doğu Yay. 1978. sy: 52.

مقالة (التّوزيع العامِّ لكنائسِ الله المحافظة علىٰ السبت): (رقم ١٢٢) في ص ٢٢ وما بعدها. (الساباتاريان)/ (السبتيين في ترانسيلفانيا)، بواسطة: صموئيل كون، ترجمة: ت. ماكيلوين وب. رووك، إصدار وكوكس، الولايات المتحدة الأمريكية: CCG للنشر، ١٩٩٨م.

(٩) وردت حياة إبراهيم متفرِّقة علىٰ نحو ما ذكر في الكثير من المصادر والمراجع العربية والتركية والغربية. انظر علىٰ سبيل المثال:

- مادة "إبراهيم متفرقة"، في: دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوي، وإبراهيم خورشيد، وعبد الحميد يونس، القاهرة: ١٩٣٣م، ج١، ص٥٨-٥٩.

- كراتشكوفسكي، إغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢ ، ١٩٨٧ ، ص٧١٥.

- دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الإنجليزية الثانية:

- Ibrahim Müteferrika, Encyclopaedia of Islam, second edition, III/995-998.

- نـزهت، سليم. تاريخ الطباعة في تركيا، ترجمة: سهيل صابان، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٣م، السلسلة الثانية (٨)، ص٣٧-٣٨.

- قدورة، بداية الطباعة العربية في اسطنبول وبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٦١.

- (الموسوعة الإسلامية) (بالتركية)، إسطنبول وزارة الشؤون الدينية، ط١ ، (د.ت)، ج٤٩، ص٨٩٧.

- Abdulhak Adnan Adıvar: «Osmanlı Türklerinde ilim», 4. Baskı, İstanbul, Remzi Kitapevi 1982. sy: 167-168.

- «Hayat Küçük Ansiklopedi» Hayat Yay. 1968. sy: 525.

- والمتتبع لكلِّ المصادر المذكورة يجد أن كلَّ المصادر المذكورة وغيرها التي تحدثت عن إبراهيم متفرِّقة اعتمدت علىٰ ما كتبه المستشرق في:

- جون، قره. "إبراهيم متفرِّقة"، مجلة مجمع التاريخ العثماني، (تاريخ عثماني أنجمني مجموعه سي)، عدد٣، ١٩١٠م، ص١٧٨-١٩٠.

(10) Niyazi Berkes:)İlk Türk matbaası kurucusunun dini ve fikri kimliği), Belleten Dergisi، Sayı: 104 (Ekim 1962) 26/715- 737.

- Niyazi Berkes: (Türkiye'de Çağdaşlaşma، İstanbul)، Batı- Doğu Yay. 1978.

(11) Halil Necatioğlu: (İbrahim Müteferrika ve Risale-i İslamiye), Ankara, 1982.

(١٢) الكتاب باللغة الفرنسية: De la literature des Turcs وقد ترجم

إلى اللغة التركية عام ١٩٩٠ بعنوان:

Ibrabim Muteferrida matbaasi ve Turk matbaaciligi

(13) Giambatista Toderini: Ibrahim Muteferrika matbaasi ve Turk matbaaciligi sy 25, 140.

(١٤) قدورة، بداية الطباعة العربية في اسطنبول وبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٦١ نقلاً عن:

- Encycl. Islam 2'ed T3 pp.. 1021 article Ibrahim Mutafarrika voir aussi d' saussure Czearnak, De letters de Turquie (1730- 1739) Budapest. 1909. p94.

(١٥) عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل، وبخاصة في المعارك التي جرت بين الدولة العثمانية والنمسا في هذه الفترة انظر:

- Niayazi Berkes: Ilk Truk matbaasi kurucusunun Dini ve Fikri kimligi Belleten: 26/ 733- 734.

(١٦) قره، إبراهيم متفرِّقة، مرجع سابق، ج١، ص١٧٩.

(17) Niyazi Berkes: Ilk Turk matbaasi kurucusu: 26/722

(١٨) قره، إبراهيم متفرِّقة، مرجع سابق، ج١، ص١٨٠.

(١٩) نـزهت، تاريخ الطباعة في تركيا، مرجع سابق، ص٣٨.

(٢٠) قره، إبراهيم متفرِّقة، مرجع سابق، ج١، ص١٨١.

(21) Turk dili edebiyau ansiklopedisi» 4/328

(٢٢) جودت باشا، أحمد، المعلومات النافعة، إسطنبول، مكتبة الحقيقة، ١٩٩٩، ج١، ص٧٤.

(٢٣) قدورة، بداية الطباعة العربية في إسطنبول وبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٦١- ٢٦٢.

(24) Turk ansiklopedisi: 19/ 509

(٢٥) جودت باشا، الحقيقة النافعة، ج١، ص٧٧.

(26) Turk ansiklopedisi: 19/510

(27) Turk dili ve edebiyau ansiklopedisi: 4/328

(28) BERKES, Niyazi: art. Ibrahim Muteferriqa EI (2) Vol. 3.p.1021.

(٢٩) نـزهت، تاريخ الطباعة في تركيا، مرجع سابق، ص٣٨-٣٩.

(٣٠) أفضل الدين، "ممالك عثمانية ده طباعتك قدمي"، مجلة تاريخ عثماني أنجمني مجموعة سمي، تشرين أول ١٣٣٢هـ، ج٤٠، ص٢٤٨.

(31) Turk dili ve edebiyati ansiklopedisi: 4/338.

(٣٢) تم اقتباس هذه النقاط من:

- نـزهت، تاريخ الطباعة في تركيا، مرجع سابق، ص٤٢ وما بعدها. نقلًا عن المقالة:

(٣٣) محمد جلبي يكرمي سكز: رجل سياسة في الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر الميلادي، اشتهر بسفارته في فرنسا، والكتاب الذي ألّفه بهذا الاسم، رجع من باريس عام ١٧٢١م بعد قضاء سنة كاملة فيها، فعين في الديوان الهمايوني، واستمر فيه حتى عام ١٧٣٠م، حيث نفي إلى قبرص بسبب عصيان «باطرونا خليل»، وتوفي فيها عام ١٧٣٢م. عمل مع «إبراهيم باشا» بالفعل للاستفادة من المستجدات. انظر:

- Turk ansiklopedisi: 23/405

(٣٤) جودت باشا، الحقيقة النافعة، ٧٤/١.

(٣٥) وقد طبعت ترجمته الفرنسية:

Traite' de la tactique ou methode artificielle pour ordonnane des troupes

من قبل البارون رويجكي Rewicki، انظر:

- Niyazi Berkes: Turkiye'de cagdaslasma. Sy: 557

(٣٦) داماد إبراهيم باشا (١٦٧٠- ١٧٣٠م) نسيب السلطان أحمد الثالث، عين في إدارة محاسبة الحرمين الشريفين عام ١٧٠٩م، ثم عين وزيرًا في عام ١٧١٦م، وزوّجه السُّلطان بابنته في السَّنة نفسها، وأصبح عام ١٧١٨م صدرًا أعظم، فوقّع في السَّنة نفسها على معاهدة باساروفجا Pasarofca القاضية بإنهاء الحرب، وقد قُتل عام ١٧٣٠م بسبب عصيان بطرونا خليل. وكان له دورٌ بارزٌ في إنشاء مطبعة إبراهيم متفرّقة، ويُعدُّ من الرُّموز في عمليَّة الانفتاح والتَّنوير.

(37) Niyazi Berkes: Turkiye›de cagdaslasma. Sy: 55- 56

- Turk dili ve edebiyati ansiklopedisi: 4/328.

- قدورة، بداية الطباعة العربية في اسطنبول وبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٨١ نقلًا عن:

- Reviczki, Traite… ppxxxII

(٣٨) قدورة، بداية الطباعة العربية في اسطنبول وبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٧٩- ٢٨٠. انظر أيضاً:

- نـزهت، تاريخ الطباعة في تركيا، مرجع سابق، ص٥٣-٥٤.

(39) Giambatista Toderini: Ibrahim Muteferrika matbaasi.. sy: 71- 73

انظر أيضاً:

- قدورة، بداية الطباعة العربية في اسطنبول وبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٨٤.

(٤٠) قدورة، بداية الطباعة العربية، ص ٢٨٥ .

(41) Niyazi Berkes: Turkiye›de cagdaslasma. Sy: 57.

(٤٢) نص الفرمان في ديباجة المجلد الأول من كتاب (وان قولي) المطبوع في مطبعة متفرقة.

(٤٣) تأتي أهمية هذا الكتاب مما اشتمل عليه من صورٍ ورسومٍ وخرائط فلكية، تُظهر الأرض مركزًا للكون، ويظهر أن جميع الصُّور والرُّسوم الموجودة في هذا الكتاب من صنع متفرقة، وذلك لأنّها غير موجودةٍ في أصله المخطوط. انظر:

- نـزهت، تاريخ الطباعة في تركيا، مرجع سابق، ص٥٥.

(٤٤) من أهمِّ الكُتُب التي طبعها متفرِّقة، ويضم ٣٩ خريطة جغرافية وفلكية. ويفهم من مقدمة الكتاب أن شيخ الإسلام أبا الخير داماد زاده أحمد أفندي، هو الذي قام بتشجيع متفرِّقة لطبع هذا الكتاب، ويُعدُّ الكتاب تحفةً فنِّيةً رائعةً لمطبعة متفرِّقة. واعتمد متفرقة في طباعته على نسخة بخطِّ مؤلفه، واستعمل في أثناء الطِّباعة كثيرًا من الحواشي والتعليقات التي وضعها المؤلّف على هامش النُّسخة المسودَّة، ولم يدرجها في النص، ولكن (جهان نُما) بقي ناقصاً، فأراد إبراهيم متفرِّقة إكمال النقص، فلجأ إلى مختصر أبي بكر بن بهرام الدمشقي المسمى (مختصر الجغرافيا الكبير)، وفي الصَّدد يقول إبراهيم متفرقة: "ولما كانت النُّسخة الأصليّة المبيضة من كتاب (جهان نما) مفقودةً، فقد وسَّعت بعض المباحث في الكتاب المذكور، وإكمال النَّقص فيه، تارةً بالرُّجوع إلى مصادر الكتاب، وميَّزتُه بعنوان: [تذييل الطابع] (انظر مثلاً: ص٧، ٤٢٢، ٤٥١، ص٦٣٠ من كتاب (جهان نامه)، المطبوع، وبإضافة الأشكال والصور، وتارةً بالنَّقل من كتاب «الجغرافيا» لأبي بكر بن بهرام الدمشقي، وأدرجت كذلك من هوامش حاجي خليفة التي لم يدرجها في نصِّ الكتاب". وكرَّر هذا الكلام في صفحةٍ كاملة مفادها أنه أكمل كتاب (جهان نُما)، بتحرير الفُصُول التي لم يكتبها المؤلّف، إلا إنه سار على نهجه وعلى طريقته واتّبع أسلوبه بقدر الطَّاقة، وبدأ ذلك من الفصل الحادي والأربعين الخاص بأرمينيا. ونقل الفُصُول التّالية من كتاب أبي بكر بن بهرام الدمشقي، مترجم (كتاب جغرافياي كبير) وانتخب منها على سبيل الاختصار، وبعض المواضع نقلتها من كلامه وعباراته بحذافيرها (جهان نامه)، النص المطبوع، ص٣-٤، ٤٠٣، "ملحقات من كتاب أبو بكر أفندي"، وأيضاً ص٤٠٤، ٤٠٨، (لاحقة: أضيفت هنا بعض العبارات من مترجم جغرافيا أبو بكر بن بهرام الدمشقي"، أيضاً ص٤٢٢، تحت عنوان: [تذييل الطابع]؛ فالصفحات من ٤٢٢ إلى ٦٩٨، في كتاب (جهان نُما) المطبوع، هي من تأليف (أبي بكر بن بهرام الدمشقي)، ومأخوذة من كتاب: (مختصر جغرافيا كبير)، وهذه الصّفحات تشمل الفُصُول المتعلِّقة بالعراق، وجزيرة العرب وبلاد الشام، وبلاد الأناضول وقسم من إسطنبول، ولم يكتبها حاجي خليفة أصلاً:

(A.Adanan Adıvar: Osmanlı Türklerinde İlim, s.,155, 170-171).

وزيادات إبراهيم متفرقة لم تقتصر على نُصُوص ابن بهرام بل شملت النُّصوص التي كتبها حاجي خليفة أيضًا، فقد أضاف معلوماتٍ عن علاقة الدولة العثمانية ببلاد داغستان وشروان، وفي ثنايا ذلك أشار إلى إرسال رئيس المعماريين العثمانيين خنبره جي محمد آغا، إلى تلك البلاد في عام ١١٣٥هـ. وهو تاريخ قريب من وقت طبع الكتاب عام ١١٤٥هـ. وكتب متفرّقة هذه المعلومات من واقع تجربته الشخصية.

(٤٥) يظهر من تقديم متفرقة للكتاب أن المؤلف ضمّن كتابه الأحداث حتى عام ١٦٤٨م، ثم جاء بعده الأمير البخاري الشيخ محمد أفندي فأورد الأحداث إلى عام ١٧٣١م، وقام متفرقة بتدوين الأحداث المهمة التي وقعت خلال سنتين، فأكمل بذلك الكتاب، وطبعه متضمنًا الأحداث حتى تاريخ طبعه.